التي انتجت غلادستون لم تزل حيَّة وستنتج رجالاً مثلهُ وفي الآن غنيَّة بما ابقاهُ فيها من آثارهِ غنيَّة بما ابقاهُ من سيرتهِ غنيَّة فوق ذلك كلهِ بما ابقاهُ من قدوتهِ الصالحة التي تدعو النفوس الى احتذائها وهذه القدوة لا تقتصر على امتنا وبلادنا بل قد شاركنا فيها كل الشعوب المتمدنة. وسيرى اهل العصور التالية في وليم اورت غلادستون مثالاً للعمَّة في العمل والصبر في الشدَّة والتقوى في التديُّن — في هذا الرجل المقدام الطاهر النبيل السامي الفضائل

العرافة والسحر والتقسيم

وآراء الاولين فيها

ملخصة من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في اصول علم السسيولوجيا بقلم نسيم افندي برباري

اذا امكن للروح الشريرة ان تسكن جسد الانسان أفلا يمكن للروح الصالحة ان تسكنهُ ايضاً. واذا كان الجنون وتشنج المصروع وهذيان الابله ناتجة عن الارواح الشريرة أفلا يكون الذكاء الفائق والمهارة الزائدة ناتجين عن الارواح الصالحة. واذا كانت الروح الشريرة تدخل الانسان في حال اليقظة وتحملهُ على افعال لا قدرة لهُ على متمها كالعطاس والتثاؤب افلا تدخلهُ روح السلف الصالح وتعطيهِ قوةً فوق قوتهِ وتزيدهُ علماً على علمهِ

ويجيب المتوحشون على هذه الاسئلة كلها بالايجاب كما يُستدلُّ من معتقداتهم. فقد تقدم معنا انهم ينسبون قوة الجنون الفائقة الى الروح الشريرة التي فيهِ. وجاء في اساطير اليونانيين ان مترفا الهة الحكمة قالت لديوميدس مشجعةً اياهُ "قد وضعتُ في صدرك شجاعة ابيك كما كانت في صدر ذلك الجبَّار تيديس" وجاء في اخبار المصريين ان رعمسيس الثاني استنجد اباهُ امون فاجابهُ قائلاً "يا رعمسيس بن امون اني معك. انا ابوك رع . . . اني أساعدك مساعدة مئة الف شخص قد جمعوا سيفي واحد" ثم لما تقهقر جيشهُ وبقي يحارب وحدهُ قال اعداؤهُ "ان هذا الذي يقاتلنا ليس شخصاً من بني البشر"

ومما يجب الانتباه لهُ في هاتين الحادثتين ان روح السلف الصالح هي التي حلَّت في الجسد واعطتهُ قوة خارقة حسب معتقد اولئك الاقوام. ثم لما ارتقت تلك الروح حتى صارت الهاً ارتقت ايضاً قوتها التي كانت اصلاً اعظم من القوة البشرية قليلاً حتى صارت اعظم منها كثيراً

وكانت الشعوب القديمة كالمصريين والاشوريين واليونانيين تعتقد في آلهتها انها كانت ولا كافراد الناس لا تمتاز عنهم الاَّ بشدة بأسها واذ لم يكن هذا الاعتقاد قيدٌ يربطهُ ولا حد يقف عندهُ اخذ تدريجاً حتى صاروا يعتقدون في الآلهة القدرة على كل شيء. ولذلك كان اذا اظهر احد الناس قوةً فائقة قالوا ان فيهِ روحاً قوية او انهُ اللهٌ متنكر

وفضلاً على ما تقدم القوة العقلية ايضاً فانهم يعتقدون ان روح السلف التي تعطي القوة البدنية تهب ايضاً الذكاء العقلي وقوة التمييز. وهذا هو اصل معتقدات المتوحشين بالوحي والالهام. فيقول اهالي جزائر تاهيتي انهُ اذا نزل الوحي على الكاهن لم تعد لهُ سلطةٌ على اعمالهِ وافعالهِ بل يصير يفعل ما تلهمهُ بهِ الروح. وجاء في اشعار هوميروس ان جميع الابتكار العجيبة تصدر عن الآلهة ولذلك كان شعراء تلك الايام يفتتحون قصائدهم باستمداد المعرفة من الهة الشعر. وقد زاد هذا المعتقد توسُّعاً فصاروا ينسبون كل عمل او فكر الى الهام الآلهة حتى زعم اليونانيون ان تبعة الجريمة ليست على من يرتكبها بل على الاله الذي الهمهُ اليها فكان اذا اخطأ احدهم قال ان الهاً خدعني ففعلت ما فعلت

والعرافة هي استعمال الوحي او الالهام لمقاصد معينة اي ان العرَّاف يستفهم من الارواح عما يريد معرفتهُ من الامور الغامضة. وافضل مثال لطريقة العرافة عند الشعوب المختلفة ما ورد عن شعب الامازولو في جنوبي افريقية وخلاصة ما حققهُ الياح ان الخلل العقلي تمهيدٌ طبيعي عندهم وافضل واسطة لذلك في الصوم لانهم يزعمون ان الشيطان لا يرى الامور السرية. ويقولون ايضاً ان العرَّاف لا ينام بل يكون وقت الالهام "يقظاً للاحلام" واذا بلغ الخلل العقلي حداً معلوماً قالوا ان الرجل صار عرَّافاً واذا لم يتأكدوا ذلك اختلفوا فيهِ فقال بعضهم "انهُ مجنون يهذي وروح السلف ليست فيهِ" وقال آخرون "بل ان الروح قد دخلتهُ". ثم اذا صدقت عرافتهُ صدقوا بهِ والاَّ انكروا الالهام عليهِ

ومثال العرافة المتقدم ذكرهُ شائع عند جميع الشعوب. فالتهيج الشديد من لوازمهِ وهو حسب زعمهم ناتج عن الروح التي هي مصدر كل الاقوال والافعال التي تصدر عن العرَّاف. ذكر وليس السائح عن كهنة اهالي جزائر فيجي انهم اذا نطقوا بالوحي جحظت عيونهم وتغيرت اصواتهم واصفرَّت وجوههم وصاروا تضطهم وصاروا اشبه شيء بالمجانين في حال الهيجان. وكهنة السنغال في الهند يصومون اياماً قبل حلول الاله فيهم وكان هذا الاله على ما يزعمون "رئيساً بينهم" وكان اليونان يعتقدون ان الآلهة تتذاكر مع الناس وتظهر لهم ارادتها وتنبئهم بالغيب بواسطة الكهنة والعرَّافين

وقد ترتب على الاعتقاد بالعرافة الاعتقاد بالتقسيم او طرد الارواح الشريرة لانهُ اذا كانت هذه الارواح تدخل جسد الانسان امكن طردها منهُ . واذا استحال ذلك بالوسائط الاعتيادية امكن الاستعانة عليهِ بالوسائط التي فوق الطبيعة وبعبارة اخرى اذا اضرَّت روح العدو انسانًا وافادت روح الصديق انسانًا آخر استطاع الثاني ان يطرد الروح الشريرة من الاول بمساعدة الروح الصالحة التي فيهِ

ويظهر من معتقدات المتوحشين ان هذه الامور كلها مصدقة عندهم ولذا اعتقدوا بالتقسيم. والطبيب عندهم متمم في الاصل وطريقة عملهِ هي التضييق على الجسد وتعذيبهُ حتى لا تعود الروح تطيق الاقامة فيهِ . ويتم ذلك على اوجه عديدة فاهالي سومطرة يدعون المجنون في كوخٍ ويضرمون النار فيهِ ويتركونهُ يسعى في تخليص نفسهِ جهد استطاعتهِ وغيرهم يقدم للمجنون اطعمة خبيثة او روائح كريهة او يجيف الروح بالاصوات المزعجة والمناظر المريعة . وذكر السياح ان اطباء هنود كاليفورنيا في اميركا الشمالية يعوون ساعات متوالية امام المصابين كانهم كلاب كلبة وان اطباء هنود كولمبيا يضغطون على معدة المصاب اشد الضغط لكي يخرج الشيطان منها . وان اطباء هنود كومانا في اميركا يعزمون ويلحسون مفاصل الجسد ثم يدغدغون حلق المريض بعود حتى يتقيأ ويسيل دمهُ ويصرخ من شدة الالم ويعرق عرقًا غزيرًا ثم يلصق بالتمة فيها كرة سوداء صغيرة . فيحملها اقرباؤهُ ويرمونها في البرية قائلين "اذهب في سبيلك يا شيطان"

ومن التقسيم اسلوب ارقى من الذي ذكرناهُ وهو طرد الارواح بمساعدة ارواح اخرى وقد بقي هذا الاسلوب متبعًا عند المتمدنين الى عهدٍ غير بعيد. ولا يزال متبعًا في بعض البلدان

والطبيب الذي يستعمل ارواح الاصدقاء الصالحة لطرد ارواح الاعداء الشريرة يستعملها ايضًا لغايات اخرى كالانتقام ونيل المطالب وهذا ما يقال لهُ السحر . ومن اقدم انواعهِ ما يعتقدهُ الكفرة في جنوبي افريقية وهو ان الاشرار يعيدون الحياة الى الاموات ويصيرونهم جنًّا ويستخدمونهم لمساعدتهم في عمل الشر . وهذا دليل على ان الجن اصلاً من الاموات . واهالي تاهيتي يقولون ان المرض والموت نتيجة دخول الارواح الشريرة في جسد الانسان بامر الكهنة . واهالي استراليا ينسبون مصائبهم الى القبائل المعادية التي تستخدم الارواح الشريرة في ايصال الاذى اليهم . وكان اليهود يعرفون الساحر بتوهم انهُ الرجل الذي يصوم ويقضي ليلهُ بين القبور حتى تأتي اليهِ الارواح الشريرة . وهذه المزاعم مشابهة لما كان شائعًا عند المتمدنين حتى الايام المتأخرة

والغاية الاولى التي يسعى اليها الساحر في استعمال سلطته على الاحياء والثانية استعانة على رواح الاموات وهو يجري في ذلك بانيًا افعاله على ما يلي فقد تقدم مثلًا ان المتوحشين يعتقدون ان صفة الشيء في كل اجزائه فاذا كلوا شخصًا انتقلت اليهم صفاته. فالاستراليون يقتلون اطفال اعدائهم ويطعمونهم لاخلائهم لكي يشبوا وفي كلٍّ منهم قوة اثنين. وقبيلة الكيركاماس في اميركا الجنوبية تاكل موتاها وقبائل التربانا والتوكانو على ضفاف نهر الامازون في اميركا الجنوبية ايضًا يأكلون رماد اقربائهم لكي تنتقل اليهم فضائلهم. وقبيلة الكوبيا كا في غربي اميركا الشمالية وهم مشهورون بصيد الحيتان يدفنون جثث موتاهم في الكهوف ثم اذ ارادوا الصيد اخرجوها وغطسوها في الماء ثم شربوه. وتطرف اصحاب هذه النزعة فقالوا ان صفات الشيء تمتد الى كل ما له علاقة به حتى منظره واسمه ايضًا. فاغلب المتوحشين يكرهون ان تؤخذ صورهم مخافة ان تصير ارواحهم في قبضة حاملي تلك الصور فيعذبونها متى شاؤوا. وكان البيرانيون القدماء يمتنعون عن الاباحة باسمائهم كما يفعل غير المتعلمين بين المتمدنين اليوم لظنهم ان بين الاسم والمسمى علاقةً او ان للاسماء ذاتًا او انها روح او خيال للجسد. وقد اتفقت قبائل المتوحشين في اقسام العالم كلها على الاعتقاد بوجوب اخفاء الاسم. فبعضهم يظنون ان معرفة الاسم تمكن الغريب من سرقته وآخرون يغيرون اسماء اولادهم الصغار لكي لا تهتدي اليهم الارواح الشريرة فتصيبهم الامراض. واهالي السيام يحاذرون ان يتلفظوا باسم الميت مخافة اغضاب روحه وهلمَّ جرًّا

وهذه الامور تبين جليًّا كيف ابتدأ الاعتقاد بالسحر وسبب الاعمال التي يبديها الساحر. فاولًا يأخذ جزء من جسد المصاب او شيئًا مرتبطًا به. ومثالًا لهذا زاعمًا ان كل ما يعمله لهذا الجزء او الشيء يكون قد عمله المصاب نفسه. فاهالي باتاغونيا يقولون ان وجود شعر انسان او ظافره عند الساحر يمكن الساحر من الاضرار به. واهالي زيلاند الجديدة يكرهون تقليم اظافرهم لهذا السبب عينه. والامازولو في جنوبي افريقية يقولون ان السحرة يقتلون الناس باخذهم جزءًا من اجسادهم كشعرهم وظافرهم او ثيابهم التي يلبسونها على جسادهم مباشرة ومعالجتها بالادوية وحفائها. واعتقد غيرهم ان السحرة يضرون بالانسان اذا حرقوا فضلات جسمه وبذلك يلقون فضلاتهم في النهر او يدفنونها لكي لا يهتدي احدٌ اليها

والاعتقاد بالرقية عام عند جميع طبقات الهيئة الاجتماعية في كل ادوارها وسببه نزعم بوجود علاقة بين الشيء ومثاله. فاطباء قبيلة الشينوس في اواسط اميركا الشمالية يعملون مثالًا خشبيًّا لعدو المريض ويطعنون قلبه وبذلك يتظنون انهم اصابوا قلب عدوهم

لفلاسفة العصور الاخيرة وسيكون كذلك لفلاسفة العصور الآتية. والكل في اعتقادي يدورون في دائرة واحدة حول مركز واحد ويعملون وهم في حركة خلاف وتنازع لتقصير الآلات والمواد الكثيرة المتنوعة الاشكال التي يتشيد من مجموعها في الحقيقة بناء واحد هو ضالتهم المنشودة . قال بعضهم ان الفضيلة هي الواجب الادبي ودليل هذا الواجب الضمير وهو الشعور الداخلي الذي به نميز بداهة الصفة الادبية في الافعال واصحاب هذا المذهب اي مذهب البداهة الادبية يستندون الى سرعة الخاطر في الحكم على ادبية الافعال او عدمها وعلى كون هذا الحكم عامًّا بين الناس على اختلاف درجة مدنيتهم ومن هؤلاء شفتسبري وهتشسن . وقال بطلر Butler ان الضمير هو السلطة العليا المميزة بين الصواب والخطاء في الافعال . وقال روسو Rousseau وجّه الطرف الى كل امم الارض وتاريخها بين خرافاتها الغريبة وتقاليدها العجيبة وتنوع اخلاقها وعاداتها تجد قوة التمييز الادبية عامة بينها

وقال آخرون ومنهم كنت Kant ان الضمير ليس الاّ الادراك العملي الحاصل من مجموع معلومات تحصلت بالاختبار مقرونة بنتائجها بعد معرفة الضار منها والنافع حتى اصبح كثير منها بديهيًّا

هذا من جهة الدليل المرشد للواجب واما الباعث عليه فسموه الخير الرئيسي ولكنهم اختلفوا في تبيينه وتحديده فذهب بعضهم ان الخير الرئيسي او الغاية الادبية لكل شخص هي سعادته او لذته الذاتية (الخصوصية) ومن هؤلاء ايكوروس ويسمى هذا المذهب مذهب اللذة الذاتية

وذهب آخرون ان الغاية سعادة الجماعة او الجنس البشري ويسمى هذا مذهب اللذة العامة او المنفعة العامة ومن هؤلاء كبرلند القائل ان خير الجميع هو الغاية العظمى التي يجب ان تكون اساس كل الاصول والقواعد ومنهم هتشسن Francis Hutcheson القائل ان خير الهيئة الاجتماعية مرادف للفضيلة . وزعيم هذا المذهب هيوم David Hume الذي حدد الفضيلة بانها الخلق الذي يستحسنه الغير والرذيلة عكسها وبعبارة اخرى ان المنفعة هي اساس التمييز بين الفضيلة والرذيلة . ثم جاء بالي Paely وعزز مذهب المنفعة على نوعيه . وجاء بعد هؤلاء بنثام Bentham وجعل المنفعة اساس الآداب والشريعة والسياسة

وليس غرضي في هذا البحث الذي اخشى ان يكون قد اورثكم الملل ان اخوض فيه لان ذلك خارج عن موضوعي وهو فوق طاقتي واغاوجهتي فيه ان ابين لحضرتكم ان اختلاف المذاهب في الآداب الصحيحة سواء كان في تحديدها او الباعث عليها لا يمس جوهرها بل يثبت وجودها ومزيتها

ولمَ يا سادتي يقع هذا الاختلاف العظيم بين الباحثين في علم الاخلاق من الفلاسفة والكتّاب وما الذي استلفت انظار كل منهم الى هذه المصادر المختلفة

لان الانسان يشعر في نفسه بقوة ادبية داخلية بديهية تحث على الطيب من الافعال وتنفر من خبيثها فاستلفت هذا نظر بعض الباحثين فجعلوهُ اساس مذهبهم وهو مذهب الضمير او الشعور الادبي البديهي

ولان العقل اذا أُطلق للبحث بالتعليل والتقدير بين النافع والضار واستخدم الاختبار والاستقراء في حوادث ماضيهِ وحاضرهِ قضى بما قضى بهِ الضمير او القوة الادبية البديهية . فكان هذا باعثاً لاستلفات نظر اصحاب مذهب الاختبار فجعلوهُ اساس مذهبهم

ولان الفضيلة أنجبتها خير صاحبها فاستلفت هذا فريقاً فجعلوهُ باعث الفضيلة

ولان الفضيلة تتيجتها خير الجماعة بل البشر قاطبة بل سعادتهم وقوتهم فاستلفت هذا نظر الفريق الذي جعل المنفعة العمومية اساس مذهبهِ

هذه هي يا سادتي بواعث الاختلاف وكلها كما قلت آلات مواد مختلفة يشيد منها البناء العظيم الصحيح الا وهو ان الآداب الصحيحة مفتاح السعادة والنجاح في العالم بحكم الضمير والعقل والاختبار والخير الذاتي والخير العام للبشر قاطبة

واني عند ما اقول هذا احوّل وجهي عن ذلك الفريق الغريب فريق الزهّاد الذي جعل الفضيلة عدوة للانسان خصيمة لسعادتهِ مذمية لحسراتهِ معتبرًا ان كلما يحلو فحراس مكروهٌ وجريمة وان اساس الآداب الحرمان من اللذات بعلة الخوف من استرسال الانسان وتورطهِ فيها وقد قال بتنام ونعمَّ القول ان فريق الفلاسفة من هؤلاء انما دُفعوا الى هذا المذهب كلفاً بظهور انفسهم فوق مستوى جنسهم البشري وتعاليهِ عن طبائعهِ فاحتقروا لذاتهِ المادية ليأتوا بدلها لذات اخرى هي الفخار والمجد والشهرة وبعد الصيت وهذه اللذات الادبيّة ليست في الحقيقة الاّ نوعاً من لذايذ الانسان الذي يرغبونهُ في التعالي عنهُ

ولا يسع انسان هذا العصر عند ما يراجع آراء هؤلاء الاّ ان يستغرب كل الاستغراب كيف ان ذلك العقل السامي في كثير من مباحث العقلية والادبية يندفع الى اقوال يضحك منها اطفال هذا العصر فقد قال بلينيوس الاكبر الروماني المؤرخ الطبيعي المشهور المتوفى سنة ٧٩ ان رجلاً يتطيب او يتبيل الى الروائح الذكية خليق بالموت وان اكبر الناس اثماً واعظمهم جرمًا اول رجل وضع في اصبعهِ خاتم ذهب

وما ليت فلسفة الانسان في الفضيلة قصرت على هذا الحد بل تجاوزتهُ الى اشواط ابعد

والسحر الذي به يستنجد الساحر بالفواعل التي فوق الطبيعة قد تولد عن هذا النوع البسيط والادلة على ذلك كثيرة . فالاولون لم يكونوا يفرقون كثيراً بين الحي والميت ولذا يرجح انهم اعتقدوا ان التأثير فيهما واحد . فاذا كان امتلاك جزء من جسد الحي يتيلهم قوة عليه قالوا ايضاً قوة على الميت اذا امتلكوا جزءاً منه . وقد تقدم معنا ان بعض المتوحشين يحتفظ بعظام موتاهم وشعورهم لاحتياجهم اليها وقت القيامة ومن هذا يستدل على اعتقادهم ان من امتلك شيئاً من بقايا الميت كان له سلطة لاكراهه والحاق الضرر به وهذا هو سر الطلاسم واصلها بقايا اجساد بشرية . فسحرة بيرو القدماء كانوا يحتفظون عظام الميت ويدهنون كل مكان البيت به كما روي عنهم . وسنة ١٦٠٤ سن البارلمنت الانكليزي قانوناً يقضي بعقاب الموت على من يخرج جثة من مدفنها لاستعمالها في السحر

والسحر وعمل العجائب من نوع واحد والفرق بينهما نسبي فاذا كان العمل لنفع المرء عدوه العجوبة واذا كان لضرره عدوه سحراً

وخلاصة ما تقدم ان الاولين كانوا يعتقدون بان ارواح الموتى تدخل اجساد الاحياء وتسبب التشنجات والجنون والمرض والموت . ثم ارتقى هذا الاعتقاد فصاروا يعتقدون أن الارواح المذكورة هي قوى تفوق الطبيعة وانها على نوعين نافع وضار الاول يسترضى بالصلوات ويطلب منه القوة والوحي والعلم والثاني يكره ويخرج من الجسد بوسائط مختلفة ويستعان بعوذ تؤخذ من اجساد الموتى لاجل السحر وعمل العجائب

وهنا سؤال لا مندوحة لنا عن النظر فيه وهو انه اذا كانت الارواح تضر اعداءها وتنفع اصدقاءها افلا يجب على الانسان ان يترضاها ويعيش معها بسلام استدراراً لخيراتها ودفعاً لضرائها . هذا بحث واسع وسيأتي الكلام عليه في عدد آخر

الآداب الصحيحة

مفتاح السعادة والفلاح في العالم

الخطبة التي ألقيت في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت تلاها فيها حضرة اغنوخ افندي فارس الخاني في ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨

ايها السيدات والسادة الكرام

اذا كان للمرء لذة في الحياة ورغبة وآمال في طول العمر فله لذة اخرى في التطلع الى الوراء ومراجعة حوادث ايامه الماضية ولاسيما اذا كانت تلك الايام من اهم ادوار حياته